جامعة البليدة 2

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

السنة الأولى ماستر

تخصص: علم الاجتماع الجريمة و الانحراف

المحاضرة رقم 2 في مادة النظريات

عنوان المحاضرة: النظرية البيولوجية (اللمبروزية) و تفسير الجريمة.

وقد قام لمبروزو بفحص نحو أربعمائة جمجمة لمجرمين وحوالي آلاف من المجرمين الأحياء، وكان مما أثار انتباهه بمناسبة تشريحه لجثة مجرم يدعى "قيليلا" اكتشاف وجود تجويف في قاع الجمجمة يشبه ذلك الموجود لدى الحيوانات السفلى كالقردة والطيور.

ولم يكن "قيليلا" سوى لصا محترفا يتسم بخفة غير عادية في حركته مع شعور واضح بالزهو بنفسه والتهكم والسخرية القاسية من الآخرين.

كما اكتشف لدى مجرم آخر يدعى "قيرسيني" بعض خصائص الإنسان البدائي في تكوينه الجسماني، وقد قتل هذا المجرم حوالي عشرين امرأة بطريقة وحشية، واعترف بأنه كان يشرب دماء ضحاياه ثم يقوم بدفن جثتهن في أماكن أعدها لذلك.

وبعد فحص الحالة الثانية – أي قرسيني – خلص إلى ما يشبه الحالة الأولى من كونه يتوفر على خصائص الإنسان البدائي في تكوينه الجسماني، كما أن له خصائص الحيوانات المفترسة، وإلى هذا الحد تكونت لدى لمبروزو قناعة مفادها أن المجرم وحش بدائي له صفات خاصة انتقلت إليه بطريق الوراثة وأنه مطبوع على الإجرام، وضمن هذه الأفكار كتابه الشهير – الإنسان المجرم الذي صدر عام 1876. (1)

أما الحالة الثالثة فكانت عام 1884 أي بعد طبع كتابه الأول وتلقى ردود أفعال متباينة نحوه حيث تم له فحص جندي يدعى "مسديا" هذا الجندي الذي كان مصابا بالصراع، وعلى الرغم من أنه لم يكن معروفا بسوء الخلق أثناء خدمته في الجيش لعدة سنوات إلاّ أنه لسبب تافه وهو أن أحد رؤسائه سخر من المنطقة التي ينتمي إليها في جنوب ايطاليا (كالاريا) ثار ثورة عنيفة، وطارد ثمانية من رؤسائه وقتلهم

جميعا، ثم سقط فاقدا للوعي لمدة عشرة ساعات، ولما أفاق لم يتذكر شيئا، وبعد فحصه خلص لمبروزو إلى أنّ هذا الشخص يجمع صفات الحيوانات الأشد توحشا، بالإضافة إلى حالة الصرع التي دفعته إلى الجريمة، وخلص إلى وجود علاقة بين الإجرام والصرع. (2)

أهم النتائج التي توصل إليها لمبروزو من خلال فحوصاته وملاحظاته الميدانية:

- خلص من بحثه ومقارناته إلى أن الإنسان المجرم يختلف عن الإنسان العادي في التكوين الجسماني والوظيفي الداخلي، وهذا النقص في التكوين يؤثر بدوره على التكوين النفسي ويؤدي بالفرد إلى ارتكاب الجريمة مثلما يرتكب المصابون بالأمراض العقلية والعصبية أفعالا إجرامية تحت تأثير النقص العقلي.

- ويلاحظ مع ذلك أن لمبروزو لم يتوقف عند أرائه التي ضمنتها الطبعة الأولى من كتابه، من أن العامل الرئيسي في الإجرام يتمثل في الارتداد إلى حالة الإنسان البدائي، بل أضاف إلى ذلك عوامل أخرى كالعوامل المرضية وبالذات حالة "الصرع" الذي يمكن أن يفضي إلى الإجرام.

- أهم ما اشتهر به لمبروزو في وصفه للمجرم هو تقريره بإمكانية التعرف عليه بواسطة صفاته العضوية الظاهرة كارتداد الجبهة، كبر حجم الأنف، طول شحمة الأذن أو انعدامها، قلة شعر الرجال أو غزارته لدى النساء، وغيرها من الأوصاف والقياسات التي اعتقد بأن أصلها خلقي أو وراثي، ووصف لمبروزو هؤلاء بأنهم متخلفون حضاريا، أي بمعنى أنهم متخلفون بالنسبة لمراحل التطور البشري (غير بعيدين عن مرحلة الحيوانات حسب نظرية دارون).

وقد خلص لمبروزو إلى تقسيم المجرمين إلى خمس طوائف:

أولا: المجرم بالولادة Le Criminel né: ويتميز عن الإنسان العادي من النواحي خلقية وعضوية متنوعة كاختلاف حجم وشكل الرأس عن النمط الشائع في السلالة والمنطقة التي ينتمي إليها المجرم وكبر زائد في أبعاد الفك وعظام الوجنتين، وكبر زائد أو صغر غير عادي في حجم الأذنين، أو بروزهما من الرأس بشكل يماثل "الشامبنزي" والتواء الأنف أو اعوجاجه، أو انفطاسه أو مشابهته للمنقار، وامتلاء الشفتين وبروزهما، والطول أو القصر الملحوظ في الأنف أو فلطحته، والطول الزائد للذراعين.

أما السمات الداخلية والنفسية للمجرم بالميلاد – الولادة – فمنها ضعف حاسة السمع، وانعدام أو ضعف الإحساس بالألم، والقسوة البالغة، وعنف المزاج وقسوة النظر وعدم المبالاة وافتقاد الإحساس بتأنيب الضمير.

وقد خلص لمبروزو إلى أن هذه الطائفة من المجرمين بالميلاد أو بالفطرة لا يرى صلاح أمرها، وهي شديدة الخطورة على المجتمع، والسبيل الوحيد للوقاية من شرها هو إبعادها نهائيا عن المجتمع بإعدامها أو باحتجاز أفرادها احتجازا مؤبدا.

ثانيا: المجرم المجنون Le Criminel fou aliéné: وهو الشخص المصاب بنقص عقلي يفقده ملكة التمييز بين الخير والشر، ويشبه في تصرفاته المجرم بالفطرة لكنه ينبغي أن يوضع في مصلحة عقلية، ويصنف لمبروزو المجرمين المصابين بأمراض عصبية إلى ثلاث فئات.

أ- المجرم المجنون وهو الشخص المصاب بمرض عقلي، ويدخل في هذه الفئة حالات الهيستيريا والإدمان المزمن على الخمور والمخدرات.

ب- المجرم الصراعي وهو المصاب بصراع وراثي غالبا، وإذا تطور الصرع أو زادت مضاعفاته تحول إلى مرض عقلي صريح، وأصبح المجرم مجرما مجنونا لا مجرما صريحا فحسب.

ج- المجرم السيكوباتي وهو شخص مصاب بتخلف في نمو الحاسية الخلقية ويدخل في هذه الفئة المجرم المصاب باضطرابات مزاجية بسبب ما يعانيه من خلل نفسي وفساد أخلاقي.

ثالثا: المجرم بالعادة Le Criminel par habitude: وهو الشخص المصاب بضعف خلقي ويرتكب جرائمه تحت تأثير ظروفه الاجتماعية التي أهمها الاتصال بالمسجونين وإدمان الخمر والوقوع في البطالة مما يكسبه استعدادا إجراميا، وتكاد تنحصر جرائم هذا النوع في الاعتداء على الأموال.

رابعا: المجرم بالصدفة Le Criminel d'occasion: وهو لا يرتكب الجريمة بسبب ميل أصيل لديه، وإنما لضعف خلقي يلم به مما يوقعه سريعا تحت المؤثرات الخارجية، وقد يرتكب جريمته بدافع من حب التقليد أو الظهور، وإخضاع مثل هذا المجرم للعقوبات التقليدية السالبة للحرية، والتي يختلط أثناء تنفيذها بغيره من الجناة ينطوي على آثار سيئة، بل يؤدي إلى تحوله إلى مجرم بالعادة، ولهذا فإن أفضل جزاء يوقع عليه هو إرساله إلى مستعمرة صناعية أو زراعية لأجل غير مسمى، وكذلك إلزامه بتعويض الضرر الذي تسبب فيه.

خامسا: المجرم بالعاطفة Le Criminel par passion: وهو الشخص الذي يتسم بحساسية مفرطة تجعله سريع الخضوع للانفعالات العابرة والعواطف المتباينة كالحب والغضب والحقد والغيرة، وقد يكون مثل هذا الشخص مصابا باختلال عقلي يفضي به إلى الجنون الصريح، وتتمثل جرائم هذا النوع في الاعتداء على الأشخاص وفي الجرائم السياسية، ويكفي لإصلاح هذا الشخص حبسه مع وقف التنفيذ

أو إبعاده عن محيط الجريمة مع إلزامه بتعويض الضرر الذي أحدثه إن كان بالغا، أما إذا كان صغير السن فيكفي إيداعه في عائلة شريفة لأجل غير مسمى. [3]

أهم الانتقادات الموجهة للمبروزو:

على الرغم من أهمية آراء أفكار لمبروزو في تفسيره للسلوك الإجرامي على أساس بايولوجي، إلاّ أن مدرسته تعرضت إلى نقد شديد وهجوم عنيف من الكثير من العلماء الذين حاولوا تفنيد نظريته من عدة نواحي، مما أدى إلى إضعافها بل وإلى بطلانها، بالوضع التي جاءت به.

حيث نشر العالم والطبيب الإنجليزي "شارل كورينق" Charles Goring (1870 - 1919) بحوثه التي أسفر عنها اختباره لعدد كبير من المجرمين الإنجليز، حيث قام بفحص حجم جماجمهم وشكل الأذنين والجبهة، وأوزانهم وأطوالهم، وأثمرت دراساته المنصبة على الجمجمة بشكل خاص إلى عدم وجود فرق يذكر بين جمجمة المجرم وجمجمة غير المجرم على النحو الذي ذهب إليه لمبروزو، وخلص إلى أن لدى بعض المجرمين ضعفا تكوينيا ناتجا عن الوراثة، يتمثل بالضعف الجسدي أو العقلي يجعلهم متميزين عن غيرهم من الأشخاص العاديين، وهذا الضعف يولد لديهم صراعا اجتماعيا قوامه عدم التكيف اجتماعيا، مما يجعلهم أسرع استجابة لاقتراف الجرائم. [4]

كما أن الارتداد الوراثي أو ارتداد شخصية المجرم إلى مرحلة الإنسان البدائي الذي ارتكزت عليه نظرية لمبروزو ليس أساسا سليما في نظر بعض العلماء، ومنهم "نيكولاس بندا" Nicholas Penda الذي ذكر أن دراسات سلالات البشرية تؤكد أن الإنسان البدائي كان له صفات نفسية راقية متميزة عن الحيوان، وإن كانت لم تصل إلى مرتبة رقي نفسية الإنسان الحديث. [5]

إلاّ أنه يلاحظ من عرض مضمون نظرية لمبروزو السابق، أنه استمر على موقفه من فكرة المجرم بالفطرة، رغم التعديلات اللاحقة التي أدخلها على النظرية، ولقد أدى هذا الموقف من لمبروزو إلى استهداف النظرية للنقد من جانبين: الأول عدم إتباع المنهج العلمي السليم، والثاني عدم صحة النتائج.